ابن الأثيـر

أعـلام المؤرخـين

المـؤرخ الكبيـــر
ابـن الأثـير [1]

يحتل المؤرخ العربي الإسلامي عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير مكانة متميزة بين المؤرخين في تراثنا العربي الإسلامي مثلما يحظى كتابه: " الكامل في التاريخ " و " أسد الغابة في معرفة الصحابة " بثقة مطلقة إذ يعدّه عمدة المؤرخين القدامى والمحدثين مرجعًا هامًّا لا يستغني عنه، قال فيه السخاوي في كتابه " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ". " قال شيخنا: أنه أحسن التواريخ بالنسبة إلى إيراد الوقائع موضحة بينة حتى كأنَّ السامع في الغالب حاضرها من حسن التصرف وجودة الإيراد ".

---

(١) مصادر الترجمة: - عبد القادر أحمد طليمات:
١ - ابن الأثير الجزري المؤرخ - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦٩.
٢ - مقدمة كتاب التاريخ الباهر للدولة الأتابكية، ط دار الكتب الحديثة، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، ١٩٦٣ م.
- محمد عبد الله الحمدان، بنو الأثير، الفرسان الثلاثة.
- نهلة أنيس محمد مصطفى، الأيوبيون في كتابات كل من ابن الأثير وأبي شامة.
- شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون - دار العلم للملايين - القاهرة - ١٩٨٧.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بدون تاريخ.
- السيد الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٦٢م.
- نظير حسان سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٢م.
- د. سليمان الدخيل، نظرة في كتاب (الكامل) لابن الأثير، (مجلة البيان، العدد ١٢).
- محمد العبدة، ابن الأثير وموقفه من الدولة العبيدية وبعض الدول المعاصرة لها، (مجلة البيان، العدد ٩)<
- دائرة المعارف الإسلامية
- الذهبي، سير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ.
- ابن كثير، البداية والنهاية.

ونوه مترجم حياة ابن الأثير في دائرة المعارف الإسلامية بكتاب الكامل فقال: " وهو - أي ابن الأثير - صاحب الكتاب المشهور: " الكامل في التاريخ " الذي يستشهد به كثيراً في هذه الدائرة ".

وابن الأثير مؤلف " الكامل " و " وأسد الغابة في معرفة الصحابة " هو الابن الأوسط لأثير الدين الجزري وأحد ثلاثة أخوة نسبوا إلى والدهم " أثير الدين " المتحدر من أسرة عربية الأصل تنتمي إلى بني شيبان أحد بطون بكر بن وائل العربية، وهي أسرة غنية كانت تمتلك عقارات وإقطاعات، وشغل أفرادها مناصب حكومية عالية، وقد شغل والد ابن الأثير منصب رئيس ديوان " جزيرة ابن عمر " التابعة للموصل ونائب وزير الموصل فيها، وجاراه في الالتحاق بالوظائف الحكومية ولداه: مجد الدين: وهو الأكبر، وضياء الدين: وهو الأصغر أما مؤلف الكامل الولد الأوسط عز الدين فقد شغله عن الوظيفة انصرافه إلى العلم تدريساً وتأليفاً.

وقد نبغ الأخوة الثلاثة في مجال العلم وكانت لهم مصنفات في مختلف أبوابه، حظي بعضها بالشهرة إلى يومنا هذا، أما مجد الدين [١] وهو الأكبر فلم تصرفه خدمته للأيوبيين عن التصنيف في

(١) قال الذهبي: " القَاضِي، الرَّئِيْسُ، العَلاَّمَةُ، البَارِعُ، الأَوحدُ، البَلِيْغُ، مَجْدُ الدِّيْنِ، أَبُو السَّعَادَاتِ المُبَارَكُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الكَرِيْمِ بنِ عَبْدِ الوَاحِدِ الشَّيْبَانِيُّ، الجَزَرِيُّ، ثُمَّ المَوْصِلِيُّ، الكَاتِبُ، ابْنُ الأَثِيْرِ، صَاحِبُ (جَامِعِ الأُصُوْلِ)، وَ(غَرِيْبِ الحَدِيْثِ)، وَغَيْرِ ذَلِكَ. مَوْلِدُهُ: بِجَزِيْرَةِ ابْنِ عُمَرَ، فِي أَحَدِ الرَّبِيْعَيْنِ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ، وَنَشَأَ بِهَا، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى المَوْصِلِ، وَسَمِعَ مِنْ: يَحْيَى بنِ سَعْدُوْنَ القُرْطُبِيِّ، وَخَطِيْبِ المَوْصِلِ، وَطَائِفَةٍ. وَرَوَى: الكُتُبَ نَازِلاً، فَأَسْنَدَ (صَحِيْحَ البُخَارِيِّ)، عَنِ ابْنِ سَرَايَا، عَنْ أَبِي الوَقْتِ، وَ(صَحِيْحَ مُسْلِمٍ)، عَنْ أَبِي يَاسِرِ بنِ أَبِي حَبَّةَ، عَنْ إِسْمَاعِيْلَ بنِ السَّمَرْقَنْدِيِّ، عَنِ التُّنْكُتِيِّ، عَنْ أَبِي الحُسَيْنِ عَبْدِ الغَافِرِ، ثُمَّ عَنِ ابْنِ سُكَيْنَةَ إِجَازَةً، عَنِ الفُرَاوِيِّ، وَ(المُوَطَّأَ)، عَنِ ابْنِ سَعْدُوْنَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَتَّابٍ، عَنِ ابْنِ مُغِيْثٍ، فَوَهِمَ، وَ(سُنَنَ أَبِي دَاوُدَ

الحديث والتفسير واللغة، درس النحو على ابن الدهان في الموصل والحديث في بغداد، وتولى خدمة الأمير " قيماز " الذي حكم البلاد

وَالتِّرْمِذِيِّ) بِسَمَاعِهِ مِن ابْنِ سُكَيْنَةَ، وَ(سُنَنَ النَّسَائِيِّ)، أَخْبَرَنَا يَعِيْشُ بنُ صَدَقَةَ، عَنِ ابْنِ مَحْمُوْيه. ثُمَّ اتَّصَلَ بِالأَمِيْرِ مُجَاهِدِ الدِّيْنِ قَيْمَاز الخَادِم، إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ مَخْدُومُهُ، فَكَتَبَ الإِنْشَاءَ لِصَاحِبِ المَوْصِلِ عِزِّ الدِّيْنِ مَسْعُوْدٍ الأَتَابِكِيِّ، وَوَلِيَ دِيْوَانَ الإِنْشَاءِ، وَعَظُمَ قدرُهُ، وَلَهُ اليَدُ البَيْضَاءُ فِي الرَّسْلِ، وَصَنَّفَ فِيْهِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ فَالِجٌ فِي أَطْرَافِهِ، وَعجِزَ عَنِ الكِتَابَةِ، وَلَزِمَ دَارَهُ، وَأَنْشَأَ رِبَاطاً فِي قَرْيَةٍ وَقَفَ عَلَيْهِ أَملاَكَهُ، وَلَهُ نَظْمٌ يَسِيرٌ. قَالَ الإِمَامُ أَبُو شَامَةَ: قَرَأَ الحَدِيْثَ وَالعِلْمَ وَالأَدَبَ، وَكَانَ رَئِيْساً مُشَاوَراً، صَنَّفَ (جَامِعَ الأُصُوْلِ)، وَ(النِّهَايَةَ)، وَ(شرحاً لمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ)، وَكَانَ بِهِ نَقرِسٌ، فَكَانَ يُحْمَلُ فِي مَحَفَّةٍ، قَرَأَ النَّحْوَ عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ سَعِيْدِ ابْنِ الدَّهَّانِ، وَأَبِي الحَرَمِ مَكِّيٍّ الضَّرِيْرِ..، إِلَى أَنْ قَالَ:

وَلَمَّا حَجَّ سَمِعَ بِبَغْدَادَ مِن ابْنِ كُلَيْبٍ، وَحَدَّثَ وَانتفعَ بِهِ النَّاسُ، وَكَانَ وَرِعاً، عَاقِلاً، بَهِيًّا، ذَا برٍّ وَإِحسَانٍ، وَأَخُوْهُ عِزُّ الدِّيْنِ عليٌّ، صَاحِبُ (التَّارِيْخِ)، وَأَخُوْهُمَا الصَّاحِبُ ضِيَاءُ الدِّيْنِ، مُصَنِّفُ كِتَابِ (المَثَلِ السَّائِرِ).

وَقَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ: لمَجْدِ الدِّيْنِ كِتَابُ (الإِنْصَافِ فِي الجمعِ بَيْنَ الكَشْفِ وَالكَشَّافِ) تَفسِيرَي الثَّعْلَبِيِّ وَالزَّمَخْشَرِيِّ، وَلَهُ كِتَابُ (المُصْطَفَى المُخْتَارِ فِي الأَدعِيَةِ وَالأَذكَارِ)، وَكِتَابٌ لطيفٌ فِي صِنَاعَةِ الكِتَابَةِ، وَكِتَابُ (البَدِيْعِ فِي شرحِ مقدِّمَةِ ابْنِ الدَّهَّانِ)، وَلَهُ (دِيْوَانُ رَسَائِلَ).

قُلْتُ: رَوَى عَنْهُ: وَلَدُهُ؛ وَالشِّهَابُ القُوْصِيُّ، وَالإِمَامُ تَاجُ الدِّيْنِ عَبْدُ المُحْسِنِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الحَامِضِ شَيْخُ البَاجربقيّ، وَطَائِفَةٌ. وَآخِرُ مَنْ رَوَى عَنْهُ بِالإِجَازَةِ: الشَّيْخُ فَخْرُ الدِّيْنِ ابْنُ البُخَارِيِّ.

قَالَ ابْنُ الشَّعَّارِ: كَانَ كَاتِبُ الإِنشَاءِ لدولَةِ صَاحِبِ المَوْصِلِ نُوْرِ الدِّيْنِ أَرْسَلاَن شَاه بنِ مَسْعُوْدِ بنِ مَوْدُوْدٍ، وَكَانَ حَاسِباً، كَاتِباً، ذكيًّا..، إِلَى أَنْ قَالَ: وَمِنْ تَصَانِيْفِهِ كِتَابُ (الفرُوْقِ فِي الأَبنِيَةِ)، وَكِتَابُ (الأَنوَاءِ وَالذَّوَاتِ)، وَكِتَابُ (المُخْتَارِ فِي مَنَاقِبِ الأَخيَارِ)، وَ(شرحُ غَرِيْبِ الطِّوَالِ) قَالَ: وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بُخلاً.

قُلْتُ: مَنْ وَقَفَ عقَارَهُ للهِ فَلَيْسَ بِبخيلٍ، فَمَا هُوَ بِبخيلٍ، وَلاَ بِجَوَادٍ، بَلْ صَاحِبُ حزمٍ وَاقتِصَادٍ - رَحِمَهُ اللهُ.

عَاشَ ثَلاَثاً وَسِتِّيْنَ سَنَةً. تُوُفِّيَ: فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِّمَائَةٍ بِالمَوْصِلِ.

حكَى أَخُوْهُ العِزُّ، قَالَ: جَاءَ مَغْرِبِيٌّ عَالَجَ أَخِي بِدُهْنٍ صَنَعَهُ، فَبَانَتْ ثَمَرَتُهُ، وَتَمَكَّنَ مِنْ مَدِّ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ لِي: أَعْطِهِ مَا يُرْضِيهِ وَاصرِفْهُ. قُلْتُ: لِمَاذَا، وَقَدْ ظَهَرَ النُّجْحُ؟

قَالَ: هُوَ كَمَا تَقُوْلُ، وَلَكِنِّي فِي رَاحَةٍ مِنْ تَرْكِ هَؤُلاَءِ الدَّوْلَةِ، وَقَدْ سَكَنَتْ نَفْسِي إِلَى الانقطَاعِ وَالدَّعَةِ، وَبِالأَمسِ كُنْتُ أَذِلُّ بِالسَّعْيِ إِلَيْهِم، وَهَا فَمَا يَجِيئُونِي، إِلاَّ فِي مَشْوَرَةٍ مُهِمَّةٍ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ العمرِ إِلاَّ القَلِيْلُ. سير أعلام النبلاء، (٢١/٤٩٢).

قبل سيف الدين غازي ثم تولى ديوان الرسائل لمسعود بن مودود ونور الدين أرسلان شاه، ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه، ويقول ابن خلكان: " إنه صنف معظم كتبه إن لم يكن كلها وهو على هذه الحال "، وله مصنفات منها: " كتاب الإنصاف في تفسير القرآن "، و " كتاب غريب الحديث "، و " كتاب جامع الأصول في حديث الرسول "، وغيرها..

وأما الأخ الأصغر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨ - ٦٣٧هـ)،[1] فقد ولد في جزيرة ابن عمر وتوفي ببغداد، وترجع شهرته إلى أنه كان من أصحاب الأساليب، ويعد كتابه المشهور في البلاغة: " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر "، الذي طبع

(١) قال الذهبي: " الصَّاحِبُ، العَلاَّمَةُ، الوَزِيْرُ، ضِيَاءُ الدِّيْنِ، أَبُو الفَتْحِ نَصْرُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الكَرِيْمِ بنِ عَبْدِ الوَاحِدِ الشَّيْبَانِيُّ، الجَزَرِيُّ، المُنْشِئُ، صَاحِبُ كِتَابِ (المَثَلِ السَّائِرِ فِي أَدَبِ الكَاتِبِ وَالشَّاعِرِ).
مَوْلِدُهُ: بِجَزِيْرَةِ ابْنِ عُمَرَ، فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِيْنَ وَخَمْسِمائَةٍ، وَتَحَوَّلَ مِنْهَا مَعَ أَبِيْهِ وَإِخْوَتِهِ، فَنَشَأَ بِالمَوْصِلِ، وَحَفِظَ القُرْآنَ، وَأَقْبَلَ عَلَى النَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالشِّعْرِ وَالأَخْبَارِ.
وَقَالَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ (الوَشْيِ) لَهُ: حَفِظْتُ مِنَ الأَشْعَارِ مَا لاَ أُحْصِيْهِ، ثُمَّ اقْتَصَرْتُ عَلَى الدَّوَاوِيْنِ لأَبِي تَمَّامٍ وَالبُحْتُرِيِّ وَالمُتَنَبِّي فَحَفِظْتُهَا.
قَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ: قَصَدَ السُّلْطَانَ صَلاَحَ الدِّيْنِ فَقَدَّمَهُ، وَوَصَلَهُ القَاضِي الفَاضِلُ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ أَشْهُراً، ثُمَّ بَعَثَ بِهِ إِلَى وَلَدِهِ الملكِ الأَفْضَلِ فَاسْتَوْزَرَهُ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ صَلاَحُ الدِّيْنِ، تَمَلَّكَ الأَفْضَلُ دِمَشْقَ، وَفَوَّضَ الأُمُوْرَ إِلَى الضِّيَاءِ، فَأَسَاءَ العِشْرَةَ، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ، فَأُخْرِجَ فِي صُنْدُوْقٍ، وَسَارَ مَعَ الأَفْضَلِ إِلَى مِصْرَ، فَرَاحَ المُلْكُ مِنَ الأَفْضَلِ، وَاخْتَفَى الضِّيَاءُ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الأَفْضَلُ بِسُمَيْسَاطَ ذَهَبَ إِلَيْهِ الضِّيَاءُ، ثُمَّ فَارَقَهُ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّمائَةٍ، فَاتَّصَلَ بِصَاحِبِ حَلَبَ، فَلَمْ يَنْفُقْ، فَتَأَلَّمَ، وَذَهَبَ إِلَى المَوْصِلِ، فَكَتَبَ لِصَاحِبِهَا.
وَلَهُ يَدٌ طُولَى فِي التَّرَسُّلِ، كَانَ يُجَارِي القَاضِيَ الفَاضِلَ، وَيُعَارِضُهُ، وَبَيْنَهُمَا مُكَاتَبَاتٌ وَمُحَارَبَاتٌ.
وَقَالَ ابْنُ النَّجَّارِ: قَدِمَ بَغْدَادَ رَسُوْلاً غَيْرَ مَرَّةٍ، وَحَدَّثَ بِهَا بِكِتَابِهِ، وَمَرِضَ، فَتُوُفِّيَ فِي رَبِيْعٍ الآخِرِ، سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلاَثِيْنَ وَسِتِّمائَةٍ، وَقِيْلَ: كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيْهِ عِزِّ الدِّيْنِ مُقَاطَعَةٌ وَمُجَانَبَةٌ شَدِيْدَةٌ.
الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٢٣/٧٤).

ببولاق ١٢٨٢هـ، من أهم المراجع في بابه، ومن مصنفاته أيضاً: " الوشي المرقوم في حلّ المظلوم "، و " المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء ".

ويعد الأخ الأوسط أكثرهم شهرة، ولد في الرابع من جمادى سنة ٥٥٥ هـ في جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، وانتقل إلى الموصل مع أسرته حيث عمل فيها والده، وهيأ له أبوه ولأخويه سبل التعليم، فألحقه في طفولته بأحد الكتاتيب في جزيرة ابن عمر فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وفي الموصل اتصل بأسرها العلمية وتردد على مجالس العلم فيها فسمع من خطيبها أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطورسي، وأبي الفرج يحيى الثقفي، ومسلم بن علي السيّجي، وتردد على الشام أكثر من مرة زمن الأيوبيين فعقد صداقات مع علماء الشام ونال شهرة في الوسط العلمي فيها محدثاً ومؤرخاً، تتلمذ على عدة أشياخ فسمع الحديث من أ بي القاسم بن حصري، وزين الأمناء، وابن سويدة التكريتي، وابن رواحة وابن كليب الحراني، وكان يتردد على بغداد منتهزاً فرصة الحج، فسمع فيها من عبد المؤمن بن كليب ويعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن سكينة، وأبي أحمد عبد الوهاب ابن علي الصوفي، ودرس على أشياخه الحساب واللغة والفقه وغيرها من العلوم.

برز ابن الأثير بنوعين من العلوم هما الحديث والتاريخ وتخصص فيهما، لكنه اشتهر مؤرخاً أكثر من شهرته محدثاً، يقول ابن خلكان عنه كان " حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم، عارفاً بالرجال وأنسابهم ولا سيما الصحابة ".

ولا تمدنا المصادر بالكثير عن حياته الخاصة، وكل ما يعرف

عنه أنه عاش منقطعاً إلى العلم تحصيلاً وتدريساً وتصنيفاً وربما اعتمد عليه صاحب الموصل في بعض الشؤون السياسية لدى أولي الأمر ببغداد، وقد حج أكثر من مرة، وسمح له غناه أن يعيش حياة أرستقراطية مما ساعده على التفرغ الكامل للعلم، فهو يذكر أن والده كان يملك عدة بساتين بقرية العقيمة إحدى قرى جزيرة ابن عمر، وقرية أخرى جنوب الموصل يقال لها " قصر حرب "، وأنه جمع أكثر مادة كتابه " الكامل في التاريخ "، في دار لهم بهذه القرية.

ويجمع من ترجم لابن الأثير على تحليه بالأخلاق الفاضلة، اجتمع به ابن خلكان في حلب فوجده على حد تعبيره: " رجلاً مكملاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع. ". وكان بيته مأوى لطلاب العلم لا يتوانى عن مساعدتهم والعطف عليهم. وتذكر المصادر أسماء بعض طلابه ومنهم ابن عساكر والزينبي والمجد بن أبي جرادة. وقد أهّله علمه وأخلاقه الرفيعة إلى عقد صلات مع مشاهير عصره ومنهم طفرين مدبر أمور حلب، وصلاح الدين الأيوبي وقد صحبه في معسكره في بعض غزواته. توفي ابن الأثير في شهر شعبان أو رمضان سنة ٦٣٠هـ عن عمر يناهز الثالثة والسبعين.

ولابن الأثير عز الدين مؤلفات أخرى لا يتسع المقال لاستيفاء موضوعها وأسلوبها بالتفصيل وهي تدخل في باب الحديث أو التاريخ أو كلاهما معاً منها:

١ - الكامل في التاريخ:

وهو تاريخ عام في ١٢ مجلدًا، منذ بدء الخليقة وابتداء أول الزمان حتى عصره، حيث انتهى عند آخر سنة (٦٢٨هـ) أي إنه

يعالج تاريخ العالم القديم حتى ظهور الإسلام، وتاريخ العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى عصره، والتزم في كتابه بالمنهج الحولي في تسجيل الأحداث، فهو يسجل أحداث كل سنة على حدة، وأقام توازنًا بين أخبار المشرق والمغرب وما بينهما على مدى سبعة قرون وربع قرن، وهو ما أعطى كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام لغيره، وفي الوقت نفسه لم يهمل الحوادث المحلية في كل إقليم، وأخبار الظواهر الجوية والأرضية من غلاء ورخص، وقحط وأوبئة وزلازل.

وفي الحقيقة أن ابن الأثير اشتهر كمؤرخ، ويرجع ميله للتاريخ إلى تحصيله الواسع في علم الحديث، وقد دفعه الاهتمام بالحديث إلى تتبع سيرة النبي وأخبار الصحابة وجره ذلك إلى قراءة كتب التاريخ حتى ألمَّ بتاريخ المشرق الإسلامي وتاريخ المغرب الإسلامي، يدفعه إلى ذلك ميل قوي إلى مطالعة الكتب التاريخية، يقول في مقدمة كتابه الكامل في التاريخ:

" أما بعد فإني لم أزل محبًّا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها مؤثراً الاطلاع على الجليّ من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها.. ". ويتضح من أسلوبه في الكتابة كثرة مطالعاته الأدبية التي طبعت بعض كتاباته بطابع أدبي أما كتاباته التاريخية ومصنفاته في الحديث فلا تتجلى فيها نزعته إلى استخدام السجع والبيان إلا في مقدمتها، فهو يؤثر الأسلوب المرسل الواضح.

ينظر ابن الأثير إلى علم التاريخ من زاوية فوائده الجليلة التي يشير إليها في مقدمة الكامل فيرى أن التاريخ باب من أبواب الثقافة يتيح للإنسان أن يعيش مع الماضي فمن يقرأ عن الماضي فكأنه

عاش فيه، وهو عظة للناس والحكام، وسبيل إلى الترويح عن النفس، وقراءة التاريخ فوق هذا تزهد الإنسان بالدنيا وترغبه بالآخرة والعبادة وتمثل عظمة الخالق، وفيه أيضاً من التأسي ما يهون به كل مصاب وتزول أمام ما يعرض من محن كل كربة.

وقد اعتمد في كتابه الكامل أكثر ما اعتمد في أجزائه السبعة الأولى منه على الطبري، فاختصر تاريخه حاذفاً الأسانيد متجاوزاً الإسهاب، مكتفياً بالرواية الواحدة، على أن ذلك لم يمنعه أن يستمدّ من مصادر أخرى كابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي مكملاً ما ترك الطبري عن قصد أو عن غير قصد كأيام العرب قبل الإسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري وغزو العرب السند.

أما بقية أجزاء الكتاب فقد انتفع في تأليفها بكل المصادر العربية التي وصلت إلى يده ولذلك عدَّ كتابه بحق خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي حتى سنة ٦٢٨هـ أي قبيل وفاة المؤرخ بسنتين. وقد امتاز ابن الأثير بانفراده من بين معاصريه في تأريخ الحروب الصليبية وغزو التتر، وقد استعان في تدوين الفترة التي لم يعاصر منها الحروب الصليبية بالعماد الأصفهاني والمؤرخين الذين عاصروها ممن سبقوه كابن القلانسي والأثاري وابن أبي جرادة وابن شداد، وقد تضمن تاريخه تقسيماً للحملات الصليبية الخمس على الشرق العربي الإسلامي والحملة الرابعة التي استهدفت في الأساس الشرق العربي الإسلامي لكنها تحولت إلى القسطنطينية.

أما الغزو التتري فقد عاصره ابن الأثير منذ بدايته سنة ٦١٦هـ حتى وفاته قبل سقوط بغداد. وأظهر أساه لما شهد وسمع من فتك

المغول وقسوتهم يقول في ذلك: " وقد جرى لهؤلاء التتار ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه.. يسرّ الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دُفعوا من العدو إلى عظيم ". واقتصر في تدوين أخبار هذا الغزو على المعاصرين من شهود العيان أو الرسائل التي تصل إلى الموصل من البلاد المهاجمة وبعض التجار. وأما منهجه في تأليف الكتاب فقد رتب ابن الأثير أخبار العالم الإسلامي على السنين فهو يجمع الحادثة التي تقطعت على أكثر من سنة ويذكرها في موضع واحد، ويذكر من ملك أو تبع في قطر من البلاد ولم يطل حكمه في السنة التي كان فيها أول أمره، ويضبط بعض الأسماء المشتبهة بالخط.

وللكامل في التاريخ ميزات منها بروز شخصية مؤلفه في الكتابة، فقد برزت انفعالاته الذاتية مع الأحداث في مواقف الرضا أو السخط من خلال تعليقاته على بعض الأخبار، من ذلك تعليقه على الصليبيين بعد عجزهم عن احتلال دمياط وانسحابهم إلى الشام بعدما استباح نور الدين بلادهم فقال: " وهذا موضع المثل خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين! ". وتعليقه على استعادة المسلمين دمياط عام ٦١٨ بقوله: " فرزقهم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو، وكفاهم شر التتر ".

كان ابن الأثير يطمح أن يؤلف كتاباً كاملاً في التاريخ ينطبق مضمونه على تسميته، يتحاشى فيه عيوب كتب التاريخ التي سبقته فقد لاحظ أن منها " المطول والممل والمختصر المخل "، ومنها الحافل بالأحداث والتفصيلات الصغيرة، دون إبراز الأحداث الهامة، وأن المؤرخ الشرقي اقتصر على التأريخ للمشرق والغربي اقتصر

على التأريخ للمغرب فإن تجاوزا ذلك أخلَّ كلاهما بذكر أخبار الآخر.. فجاء كتابه مقتصراً على المفيد، كتبه ببصيرة ناقدة وتنظيم مريح للقارئ، وإن لم يتحرر كليًّا من عيوب من سبقه من المؤرخين كاهتمامه بالسند دون مناقشة ما يروى من أساطير ولا سيما في تاريخ الفرس وبدا اهتمامه في بعض المناطق والأقاليم أكثر من المناطق أو الأقاليم الأخرى، بحسب غزارة الأخبار أو قلتها عنها، لكنه كما قال روزنتال: " بذل جهده على الأقل لمراعاة توازن معقول بين الأحداث في كافة أنحاء العالم الإسلامي رغم أن عمله هذا لم يكلل بالنجاح التام ".

وقد تحدث الدكتور عبد القادر أحمد طليمات عن ابن الأثير الجزري في كتابه: " ابن الأثير الجزري المؤرخ " فلخص أبرز سمات عمله التاريخي ومن هذه السمات أنه نقد التاريخ نقداً واعياً فردّ بعض تعليلات الطبري لحرب الفجار ودافع عن الخليفة عثمان في موقفه من أبي ذر الغفاري حين نفاه إلى الربذة بقوله: " فإن للإمام أن يؤدب رعيته "، ومن سمات تاريخه ملاحظته وتعليله لبعض ظواهر تاريخية استقرأها من الأحداث كملاحظته تحول الملك من مؤسس الدولة في التاريخ الإسلامي إلى أهل بيته دون أولاده، وذكر عدة وقائع تؤيد هذه الظاهرة من التاريخ الإسلامي وعلل هذه الظاهرة: " بأن الذي يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فيحرمه الله أعقابه، ومن يفعل ذلك، من أجلهم عقوبة له "، ومن سمات عمله التاريخي الحياد، فقد أرخ للزنكيين والأيوبيين بحياد تام، وإن كان بعض المؤرخين قد اتهموه بالخروج عن الحياد حين حمّل صلاح الدين مسؤولية تساهله مع الفرنجة والسماح لهم في التجمع بمدينة صور فاستعصى عليه فتحها بعد

ذلك، واعتبروا نقده هذا نقداً مغرضاً بهدف التجريح.

وفي الحقيقة أن ابن الأثير كان شديد التحامل على صلاح الدين في آرائه وكتاباته، وقد اتهم فيما كتبه عن صلاح الدين، فقد كان يتلمس المناسبات أحيانًا لنقد صلاح الدين وتجريحه، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين محمود، وكلها كتابات قد كتبت بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي [1].

كما أخذ عليه أنه لم يكن منصفًا في نظرته إلى بعض الشخصيات المعاصرة له، فقد بالغ في تمجيد الزنكيين وأسرف في الإشادة بهم وإضفاء هالة براقة على أعمالهم وذلك اعترافا منه بفضلهم عليه وعلى بيته وأسرته، وربما دفعه الولاء إلى التغاضي عن بعض أخطائهم وعيوبهم مكتفيًا بذكر محاسنهم ومآثرهم.

ومن المآخذ التي تؤخذ على ابن الأثير تعاطفه مع الشيعة فيظهر للمتأمل في كتابه الكامل تعاطفه مع الشيعة، أو من لهم ميول (علوية) على الأقل، فتراه كثيراً يترجم للشيعة وخاصة (الإمامية) وربما ذكر بعض معتقداتهم الفاسدة ولا يعلق عليها، وفي أحداث الفتنة الواقعة بين الصحابة يلحظ القارئ لكتابات ابن الأثير تغليب الروايات التي تصف خصوم (علي) - رضي الله عنه - بصفات يبعد قبولها، بل يبعد أن يقول بها علي نفسه، وسار على هذا المنهاج في تناوله للشيعة والعلويين على مدار كتابه الكامل،،فهو يظهر لهم ميلا وتعاطفا غير مبرر. ومن خلال قراءة أحداث القرنين الرابع والخامس في (الكامل) يتبين لنا أن ابن الأثير متعاطف مع هذه الدول الشيعية وغير السنية بشكل عام، فهو يمدح ملوكهم ويبرز محاسنهم

(١) وقد استقصينا - بفضل الله - كل هذه المواقف في كتابنا تاريخ الدولة الأيوبية، فليراجع.

ولا يذكر عيوبهم، ويؤكد في كل مرة يترجم لأحدهم بقوله: (الخليفة العلوي)، كأنه يريد أن يرسخ هذا في ذهن القارئ، ثم تبين لنا أنه يغرق في مدح بعض ملوك الدولة البويهية وأمراء الدولة الأسدية والحمدانية، وهذه الدول والإمارات كلها غير سنية.

وهذا ليس اتهامًا لابن الأثير - عليه رحمة الله - بالتشيع وحاشاه عن ذلك ونحن لا نملك عليه دليلاً، بل نجد في ترجمته ثناء العلماء والحفاظ من مشاهير أهل السنة؛ بقدر ما هي وقفة أو قراءة متفحصة نقدية في كتابه (الكامل في التاريخ) أظهرت شيئًا من الميل للشيعة، وربما كان ميل ابن الأثير للشيعة وتعاطفه معهم ناتجًا عن الجهل بعقائد الشيعة، وربما هي لظروف العصر وملابسات البيئة التي عاش فيها ابن الأثير؟ وهي بيئة كان للشيعة فيها وجود ليس على مستوى الأفراد فحسب وإنما على مستوى الولاة والحكام. ومن أمثلة ذلك: الملك الرحيم (ت ٦٥٧) الذي ملك (الموصل) نحواً من خمسين سنة وهو الذي أزال الدولة الأتابكية (وهم أسياده قبل)،ومن الممكن أن يكون ابن الأثير قد تأثر به سياسيًّا واقتصاديًّا فمال نحو الشيعة عن طريق التأثر والإعجاب فقد كان هذا الملك يبعث في كل سنة إلى مشهد علي قنديلاً ذهبيًّا زنته ألف دينار، وهذا - كما قال الحافظ ابن كثير - دليل على تشيعه، بل على قلة عقله [1]. وربما يكون ابن الأثير قد تأثر بآراء ابن طيء المؤرخ الشيعي الذي كثيرًا ما أساء للعلاقة بين صلاح الدين الأيوبي ونور الدين محمود مصورًا إياها بالوحشة والخلاف، وحاول كثيرًا تلطيخ العلاقة بين كلا الرجلين السنيين بأكاذيبه الملفقة، حتى اتهمه المؤرخ أبو شامة بالدس والكذب والطعن في العلاقة بين كلا الرجلين.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ /٢٠٣.

وهذا لا يقلل من قدر الكتاب وقيمته بقدر ما تلفت النظر إلى ملاحظة يحسن التنبه لها.

ومن سمات عمله تخيره للمصادر الموثوقة التي استمد منها الأخبار وتصويبه بعض ما ورد فيها، وتعليقاته التي تعكس حرصه على الدقة والصحة التاريخية، غير أن ابن الأثير لم يستطع أن يتحرر من مشاعره الإنسانية في كثير من المواقف فكان يبرز فرحه لانتصارات قومه في مواجهة التتر والصليبيين ويبدي رضاه أو استنكاره في تقويمه للأشخاص والأحداث بأسلوب لاذع مفصحاً عن أحاسيسه الذاتية.

٢ - اللباب في تهذيب الأنساب: وهو كتاب اعتمد في تأليفه على كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي، فهذبه واختصر تراجمه المطولة وصحح معلوماته، وربط البطون بالقبائل التي ينتسب إليها أصحاب الأنساب معتمداً على مصادر أخرى منها: كتب ابن خياط والقاسم بن سلام، وابن ماكولا، والدارقطني.

٣ - أسد الغابة في معرفة أسماء الصحابة: وموضوع هذا الكتاب هو الترجمة لصحابة الرسول ﷺ الذين حملوا مشعل الدعوة، وساحوا في البلاد، وفتحوا بسلوكهم الدول والممالك قبل أن يفتحوها بالطعن والضرب وقد اشتمل الكتاب على ترجمة (٧٥٥٤) صحابيًّا وصحابية تقريبًا، يتصدره توطئة لتحديد مفهوم الصحابي؛ حتى يكون القارئ على بينه من أمره. والتزم في إيراد أصحابه الترتيب الألف بائي، ويبتدئ ترجمته للصحابي بذكر المصادر التي اعتمد عليها، ثم يشرع في ذكر اسمه ونسبه وهجرته إن كان من المهاجرين، والمشاهد التي شهدها مع الرسول ﷺ إن وجدت، ويذكر تاريخ وفاته وموضعها إن كان ذلك

معلومًا، وقد طبع الكتاب أكثر من مرة.

وقد عرّف ابن الأثير الصحابي بقوله: " إن الصحابي هو الذي " أقام مع رسول الله " سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين "، واعتمد فيه على المصادر التي سبقته، فصوّب بعض الأسماء والأماكن، وحذف بعض الأحاديث، وعلّق على بعضها، وأضاف معلومات لم ترد في كتب تراجم الصحابة الأساسية السابقة ككتاب: " معرفة الصحابة "، لابن منده وكتاب معرفة الصحابة: لأبي نعيم الأصفهاني وكتاب: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي، وكتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل في رجال الصحيحين لأبي علي الغساني. وقد رتب التراجم فيه على حروف الهجاء وضبط الأسماء المتشابهة وشرح بعض الألفاظ الصعبة في الأحاديث.

٤ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية: وهي الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل وعاش ابن الأثير وأسرته في ظلها فهو تاريخ للأسرة الزنكية والدولة التي أسستها فصل فيه أخبار هذه الدولة تفصيلاً تجاوز ما ورد عنها في كتابه الكامل، ودفعه إلى تأليفه وفاؤه للأسرة الزنكية التي برّت أسرته ولا سيما نور الدين أرسلان شاه، وقد ألف الكتاب بمناسبة وفاته لتوطيد صلته ببدر الدين لؤلؤ الذي خلفه سنة ٦٠٧. وقد خرج في بعض حوادثه عن الحياد التاريخي فبدا ممالئاً للأسرة الزنكية متستراً على بعض عيوب أعلامها، وقد اعتمد على والده في جمع بعض أخباره.

هذه لمحة موجزة عن حياة هذا العالم الكبير الذي خدم الثقافة العربية ودفع بكتابه التاريخ العربي الإسلامي خطوة إلى الأمام.

* * *